﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المتعب للخلق أن تأتي الظلمة وتكون في مهمة النور ، وأن يأتي النور في مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور دور ومهمة في الحياة . ولذلك قلنا في أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعي مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذي يعيننا على السعي على أمور حياتنا ، ويتطلب السعي طاقة ، ولا يمكن أن تأتي الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذي يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشيء الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه - سبحانه - يريد متكاملا يعين متكاملا ، فلا شيء يهدم شيئا مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدي مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأُدِّيَت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسع

الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم فى الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون « مذهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة :

﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار - إذن - نعمتان ، وكل نعمة تساوى الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منها لتساند الأخرى .
وفى سورة الليل يتابع الحق :

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خلطت المهمتين ينتج الفساد .

﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة - إذن - هى عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهى ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة

إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحتى نعرف أهي ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة في معناها الحسي ، إنها ما يؤدي إلى عدم الاهتداء إلى الحركة المنجية ، إذن فكل أمر يؤدي إلى عدم الاهتداء - حسّياً أو معنوياً - هو ظلمة ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يسير في أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التي يصعب على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسّية أم معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هي الأحداث والكوارث والنوازل التي تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه ، وتظهر التناقضات في أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما في تقييم وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذي يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدي واجبه ، ويخرج من لذيذ الكسل ليجد لذة في العمل ، إنه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذي ينام ويوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع في الطريق ، مثل هذا التلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التي تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذي يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً في الريف هو الفلاح الذي يقضي وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التليفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا ري ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التي يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذي يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم في ريها في المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذي أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزقَ الوفيرَ . أما الذي يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذي أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان فى الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنْ هناك اختلاف فى تقديرالنفعية بين إنسان وآخر ، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها . وهاهوذا المتنبى الشاعر العربى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهامًا بها صبّاً
فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه - إذن - جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد فى سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية . فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهى تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزّت أسباب البشر وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول : « يارب » ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله وتمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله فى وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهى أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة : يارب . يارب . يارب على ألسنة كل ركابها بداية من « القبطان » والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة فى الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : « ضل من تدعون إلا إياه » ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين ؛ أمر يبسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذى يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذى يضيّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : « الله » . وهى صيحة التقدير والتقديس لله الذى أعطاه موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : « يارب » . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التى لا بد أن يقررها السامع لهذا السؤال وهى : إن الله هو المنجى من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هى التى ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجى من ظلمات البر والبحر . والكون - كما نعلم - إما بر وإمّا بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة فى عصرنا هى كوارث الجو . ؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة فى المسجدالحرام ؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو فى الدور والطابق الأول أو الثانى أو الثالث من المبانى المقامة كمسجد حول الكعبة . ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المبانى التى حولها . والمصلون يتجهون فى صلواتهم فى تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضا ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السعى بين الصفا والمروة ؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة فى الدور الأرضى ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعى . وهكذا نرى أن جو المسعى

مسعى أيضاً . وقديماً كان محرّماً على الطائرات أن تطير فى جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم فى الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم فى أجواء مكة والمدينة المنورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية » إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوبا منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذى تتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفى اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لى » ، نجد الذى استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه فى فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هى فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوى للمساوى فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . . إنه السؤال بتضرع وخضوع . والتضرع يقتضى قولاً ، ويقتضى فعلاً ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

ويخطىء من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل . فعندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفى لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

فى قلبه ذرة من نفاق ؛ لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » . والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس فى ذلك رياء ؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلاّ الخالق البارىء ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت فى قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هى تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلاناً عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحى بهذا القول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة فى أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء ـ كما علمنا ـ يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر فى قوله الحق :

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) : قول و(تضرعا) : فعل لأنه خشوع وخضوع - و(خفية) : انكسار القلب وخشيته و« أنجانا » تدل على التعدد ؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضا قوله : (قل الله يُنجِّيكم) يدل على التكثير ، أى أنه لا ينجّي مرة واحدة ولكنه ينجّي لمرات كثيرة . ويأتى لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدى النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجي الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجّي الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر فى نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه فى أى حالة من حالاته - سواء أكان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً - حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه - هنا - يُذكّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجِّيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية فى البر البحر ، وسبحانه بعلمه الأزلى يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة .

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العصر)

أى أن الإنسان على إطلاقه فى خُسْر . ولكن الحق يستثنى مَن ؟ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذى يحيا فى خسران ، لكن من يعيش فى رحاب المنهج هو الذى لا يخسر أبداً . والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، فإذا ما أنجاه الله ادّعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله ، إنّه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وكلمة « قادر » تعنى تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملى للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم

الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه هي التحتية . فالعذاب قد يأتي من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً ، وقد يأتي أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذي يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتي العذاب من الفئات الفقيرةالتي تعيش أسفل السلم الاجتماعي .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي . و « شيعاً » هي جمع « شيعة » . والشيعة هم : المتعاونون على أمر ولو كان باطلا ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : « أو يلبسكم شيعاً » أي أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التي تختفي وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً .

ولماذا كل ذلك ؟ لأن الناس مادامت قد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب . ولكن أغيّر ذلك في ملك الله ونواميسه الثابتة من شيء ؟ أبداً ، فالسماء هي السماء ، والأرض بعناصرها هي الأرض ، والشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هي النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذي يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبة ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلابد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات

الجماعية حتى يرى الضعيف فى سلطان الدنيا القوى فى السلطان وهو يشترك معه فى السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة فى ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضا نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساويا لمن فى المركز الاجتماعى القوى . الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكيا . ويريد سبحانه بذلك استطراق العبودية ، ويذل الإنسان المؤمن أمام الله وأمام الناس حتى ينمحى الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفى بيته على سواء .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التى تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

هاهوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة .

والقاعدة التى قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛

لأنه لا يوجد فى الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

ومثال آخر كنا نراه فى بلد كلبنان ـ إبان الحرب الأهلية ـ وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب .

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتى لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً فى الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التى يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

ما الذى كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيمانى يشمل القرآن ويشمل ما اتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالسُّنة ليبين ويشرع . ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التي تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات في كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن

لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل فى حديث شريف : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[١] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

ونحن نصلى كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

أى أن هناك من الأمور العقدية التى أنزلها الحق مجملة فى القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهى ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنما ضمن طاعة الله .

ويقول سبحانه مرة أخرى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النور)

أى أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول .

---

(١) رواه البخارى ، والبيهقى ، والدارقطنى فى السنن .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التى التقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولى الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التى نحن بصددها :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالذى كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للمنهج أيضا . فالمكذَّب به هنا هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وفى حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتى أكثر من شاهد عِيان لها فلا نجدهم يختلفون فى رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعا ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يروْا الواقعة التى يشهدون عليها تجدهم مضطربين فى الأقوال . ولذلك نجد وكيل النيابة يحاول استنباط كل الوقائع من أفواه الشهود ؛ لأن الحق قد يختفى قليلا وراء بعض من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلا بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد) .

الماء - إذن - ينزل بأمر الله من السماء فتستغر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التى تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يَطفو - أيضاً - عندما يُصهر الذهب أو أى معدن ويُسمى الخبث . هكذا يطفو الباطل كالزَّبَدِ ويذهب جُفاء مطروحا ومرميا به بعيدا أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذى ينفع الناس فهو يبقى فى الأرض . وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيمانى هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيل على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذى يعاقب كل مكذِّب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ .

« وكذّب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هى تقريع فظيع لهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جرّبوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور بلاغهم بالرسالة : أنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أيكذب على الخالق ؟. ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا علىّ من لدنه وألاّ أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلنى به إليكم . وعندما يمتن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حمق أكثر من حمق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

والنبأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبأ ، ذلك أن هناك المثير من الأخبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لايضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فلكل نبأ مستقر ، والمستقر هو ما طُلب القرار فيه . والنبأ مظروف والمستقر مظروف فيه . والمظروفية تنقسم قسمين : مظروفية زمان ، ومظروفية مكان . أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذى يُعلن فيه الخبر .

النبأ - إذن - هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تجلى السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هى فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ؛ لأنه يخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويلفت كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكم كل إنسان هواه فلن تجد فى الأرض قضية متفقاً عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذى تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذى تلتقى فيه الأهواء وهو استنباط ما فى الأرض من كنوز واستكشاف ما فى الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذى خلقه الله ، من الكون

الذى خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التى يستكشفها فى الكون .

ويؤكد لنا واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشرى عندما فكر فى مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية . ولم تختلف الدول والمعسكرات فى تلك المجالات ، بل التقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات ، فلا توجد - كما قلنا - كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد « كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك تجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقى فى مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد فى عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسى ونظام آخر ، بل تلتقى الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذى تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، يفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويبتكرون ، ويصلون إلى أسرار فى الكون تخفف عنهم تبعات الحياة ، وتؤدى لهم غايات السعادة فى الوجود بأقل مجهود .

ولكننا نجد الصراع العنيف على الجانب الآخر - جانب المبادىء والمنهج - وهو صراع لا يهدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافات عميقة ، الرأسمالية تختلف عن الاشتراكية ، وتتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التى أنتجتها الأهواء : الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل لذلك كان الخلاف . ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية فى فرض النظم التى اختلفوا عليها .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ؛ إنه جل وعلا قد ترك عقول البشرية حرة فى كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض فى ضوء المنهج الإيمانى ؛ لأن الإسلام جاء فى إثر ديانة حاول القائمون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنوت على العقل البشرى فى أسرار الكون .

والمثال على ذلك واضح تماماً فى التاريخ البشرى ، ففى العصر الذى تأخرت فيه أوروبا وسُمى « عصر الظلمات » كان المسلمون فى الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون

فى عصر النور ؛ لأن الإسلام علمهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله فى الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا فى مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب فى الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك أنتصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومعنى « مستقر » أى ميلاد يستقر فيه . أى لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون لهذا الدين انتشار ، وهذا الانتشار له ميلاد فى زمان وميلاد فى مكان ، أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وخاتما للنبيين والمرسلين .

ويؤيد الحق سبحانه قضية « لكل نبأ مستقر » بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك . ومثل ما حدث فى الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أى جمع هذا الذى سيهُزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولّوا الدبر . ونجد كل قضية قرآنية محفوظة ومسجلة فى السطور ، يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكن حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربى حامل الدعوة الأول - عليه الصلاة والسلام - ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما يعُم الفساد فى الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل فى كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شرّة وحدّة المعصية فى نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرىء الشهوات ، وينعدم الوازع الذى يردع الإنسان .

وإذا انعدم الوازع فى فرد واحد فلن ينعدم فى المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التى استمرأت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد فى الفرد وفى المجتمع فماذا يكون الموقف ؟

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتى الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لاذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلاً

عض الناس وأرهقهم وأعنتهم ، وحين يعضّ الباطل المجتمعات فالذى ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذى يشقى بذلك هم أهل الحق ، فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد . وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذى سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق .

وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل المفاسد . لذلك يقف المنتفعون من الفساد ضد الدين الجديد ليحافظوا على مكانتهم فى المجتمع . ويقول الحق تهذيباً للمؤمنين، وتأديباً لغير المؤمنين :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم. لذلك لا بد أن تحافظ على أمرين . . الأمر الأول : أن الذين اتبعوك ـ وهم ضعاف ـ قد لا يستطيعون مواجهة القوة الظالمة ؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تريّثْ ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثانى: أنك إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم وبيِّن لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا ؟ لأنهم يخوضون فى آيات الله . ولكن أيستمر هذا الإعراض عنهم طوال الوقت ؟ ، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون فى أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما فى غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم فى حاجة إلى سماع صيحة من الحق ، لذلك انتهز فرصة عدم خوضهم فى دينك وفيك ، ولقّنهم ما تبشر به ، ولقّنهم كذلك ما تنذر به ؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى فى منتهى الدقة ؛ لأن الخوض فى أصله هو الدخول فى الماء الكثير . والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، ومادام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أى موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى هوّة ، لكن الذى يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدمه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق :

﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

ولماذا وصف فعلهم هذا بأنه لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب وكان فى قالب الجد . ولكن إذا كان هذا الشيء يؤدى إلى نبوغ فى مجال من مجالات الحياة فنحن ندرب أبناءنا عليه فى فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة فى الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسئولية ، فلا يضيع وقته فى اللعب أو فيما يلهيه عن أداء الواجب .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾

(سورة الأعلى)

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا :

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وحينما ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول يُخاطَب : « وإما ينسينك الشيطان » فإذا ما نسى إنسان لغفلة من الغفلات ، فليأخذ علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون فى آيات الله فى أثناء خوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه ؛ لأنه وهو العليم بهم ، خلق لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة ذاكرة ، وملكة مخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدى مهمة : فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات ، والذاكرة تأتى بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها فى بؤرة الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل فى ذهن الإنسان ؛ لأن العقل لا ينشغل إلا بقضية واحدة فى بؤرة الشعور . وحتى تدخل قضية أخرى فى بؤرة الشعور ، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا فى نفسه لصار من المحال أن تدخل قضية جديدة أخرى . ولهذا خلق الله النسيان ، أى انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور . والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف ؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً فى دوائر شعورية بعيدة . ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعانى فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون هذه المسألة « تذكر » .

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان ؟ ، لأن حقائق الحق فى دينه هى الصدق ،

ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهى لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان ، فالشيطان يزين الأمر الذى يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزغ الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزغ الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتنفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيمانى هو أعز عندك مما فى مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من نفع . وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه .

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين فى أثناء فترة ضعف المؤمنين فى بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتقون فى المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهى مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام فى بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء فى المسجد الحرام ، وإذا جاء الذين يخوضون فى آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى أنك إذا كنت معهم وخاضوا فى الحديث فقمت من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت فقمت ، فأنت تلفتهم إلى أنّ ما أقامك من مجلسهم هو شىء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شىء ، وليس عليكم من حسابهم من شىء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو تذكرة لهم لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .